الفصل الأول

الحضارة المصرية

إن أول خاطر يمر بالفكر عند ذكر أفريقيا هو خاطر خاطئ، إذ يطلق عليها القارة السوداء وهذه التسمية ما هي إلا من وحي الفكر الأوروبي ولاقت تلك التسمية رواجًا؛ ولعل مرجع ذلك إلى أن أفريقيا كانت آخر القارات التي فتحت عينيها لبريق العالم الخارجي. وبالرغم من ذلك فلم تكن أفريقيا على هذا القدر من التأخر، بل كانت هناك بقاع في الأرض أكثر تأخرًا في الوقت الذي كانت فيه أفريقيا تنعم بحضارة وتعيش في رُقي. فمثلًا عندما اكتشف الأوروبيون أستراليا كان سكانها يعيشون على حرفتي الجمع والالتقاط وصيد الحيوانات مستعملين في صيدهم أدوات حجرية كتلك التي كانت مُستعملة في العصر الحجري وكان الأفريقيون في ذلك الوقت قد هجروا تلك الأدوات الحجرية منذ زمن بعيد يتردد بين ثلاثة آلاف وستة آلاف سنة.

كذلك ظل الهنود الحُمر حتى القرن السادس عشر يستعملون أدوات العصر الحجري الحديث التي كانت عبارة عن أدوات حجرية مصقولة. وفي هذه الحقبة من الزمن كان مزارعو أفريقيا يستغلون الأرض في الزراعة معتمدين على أدوات جديدة. فضلًا عما كان ينعم فيه الثلث الشمالي للقارة من حضارة إسلامية. أما بقية القارة، فكان أهلها يخضعون إما لنظام القبائل أو لولايات بلغت من القوى حدًّا تستطيع معه طرد الغزاة

والمهاجرين من وراء البحار حتى القرن التاسع عشر.

ويرجع السبب الحقيقي الذي أخر تغلغل الأوروبيين في القارة وسيطرتهم على مناجم الذهب سواء في غربها أو في وسطها مثل روديسيا الجنوبية؛ إلى أن الأفريقيين كانوا على درجة من التنظيم والإدراك مكنهم من اكتشاف تلك المواد والإتجار فيها. ويعلل البعض أن هذا التقدم الذي بلغه الأفريقيون وهذا الرقي الذي وصلوا إليه في العصور الأولى هو الذي دفعهم إلى مقاومة حضارة الأوروبيين وعدم تقبلها لمدة طويلة.

أصابت الحياة– عبر السنين الطوال– سلسلة من التطورات، فظهرت الأدوات البدائية منذ مليوني سنة ولم يستطع الإنسان أن يتحكم في النار أو يستغلها في أغراضه وحاجاته المتلفة قبل خمسين ألف سنة. ثم عرف الإنسان الزراعة منذ عشرة آلاف سنة ومع الزراعة بدأت الحقبة الثالثة من تطورات البشر إذ تمكن الإنسان من زراعة أنواع من المحصولات التي يحتاجها في الطعام والتي كانت تنمو برية في بادئ الأمر واستتبع الزراعة الاعتماد على الحيوانات ولذلك استأنس بعضها وسخرها لحاجته، فكانت نشأة القرى.

ولم تظهر زراعة المحصولات وإنتاج الطعام طفرة واحدة في أفريقيا إلا في مصر، فمنذ تسعة آلاف سنة زرع الفراعنة المحصولات الزراعية ويرجع الفضل في ذلك إلى النيل العظيم وفيضانه السنوي المنتظم وأخذ تعداد المصريين في تزايد مستمر، وبعد ذلك بألفين سنة انتشرت زراعة القمح والشعير بين المصريين، كما انتشر رعي الأغنام والماعز والمواشي ثم بدأوا زراعة أنواع مختلفة من الخضر، كما اكتشفوا أنواعًا أخرى من المحصولات خلاف القمح

والشعير تتلاءم مع المناخ. ومن مصر انتشرت الزراعة إلى بقية أفريقيا. وفي الواقع لا يوجد مثيل لوادي النيل الخصيب في أي مكان آخر وقد صاحب تطور الزراعة تطور في صناعة الأدوات إلى أن أخذت شكلها المسطح كأدوات للزراعة وشكلها المدبب كأدوات للصيد.

وتدل الآثار على أن إنتاج الطعام لم يعرف إلا في ذلك الجزء الصغير من شمالي أفريقيا عندما نزح سكان البداري إلى الجنوب حتى مصر الوسطى، وذلك في عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد.

كما دلت المقابر في تلك المنطقة، العرابة وطيبة (الأقصر)، على تزايد مضطرد في السكان وعُرفت القرى وأخذ الأهالي في تحصينها ضد الغارات. وتشير النقوش على الأواني والقدور، وهي عبارة عن أسرى الحروب يرسفون في الأغلال والقيود وقارب البردي الطويلة، إلى القيام برحلات برية ونهرية طويلة للإغارة وللتجارة. وهناك دلائل قوية على استخراج المصريين للذهب من مناجم البحر الأحمر وعُثر على قدور وأوان من المرمر والبازلت؛ مما يؤكد وجود فنانين وصناع مهرة في تلك الحقبة ووجود هذه الأواني والقدور مدفونة مع الموتى في القبور ومعهم ثرواتهم وكنوزهم وتمائم وتعاويذ وطعام، يشير إلى ذلك التفكير العميق والإحساس المرهف والإيمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا.

بدأت مصر تستورد الفضة والرصاص ومعادن أخرى وترتب على ذلك التبادل التجاري مع الخارج إلى مراكب للنقل فبدأت صناعة المراكب الكبيرة ذات الستين مجدافاً.

وأحرزت مصر نجاحًا في الميادين الاقتصادية والفنية في نهاية القرن الأربعين قبل الميلاد؛ الأمر الذي يشير بوضوح إلى التقدم السريع الذي حققته مصر وبذلك بعدت المسافة بينهما وبين أي جزء من أفريقيا.

ويبدو أن نظام الحكم في مصر انبثق من مصر ذاتها وأخذت تخطو خطوات واسعة نحو تطور نظم الحكم، فاتحدت الأقاليم أثناء حكم الأسرة الأولى. ثم أخذ فن العمارة في التقدم والازدهار حتى كانت مقبرة زوسر في الأسرة الثالثة وبداخلها وضعت عشرة آلاف آنية. وبعد ذلك بني الهرم الأكبر في الأسرة الرابعة، وهو مكون من مليونين وثمانمائة ألف حجر وزن كل منها ثمانية أطنان ونصف.

وبلغ من تقدم المصريين في الزراعة أن الإنتاج بلغ ثلاثة أضعاف ما يحتاجون إليه في استهلاكهم. وعلى ذلك يمكن القول إن الوحدة السياسية هي أرقى ما وصل إليه التطور الجبار بعد حياة الغابات والمستنقعات التي لا زال يحياها جزء كبير من أفريقيا في الوقت الذي ظهر فيه المجتمع الراقي المنظم يرتبط أفراده برباط الوحدة.

انتشرت تجارة المصريين وانتشرت معها ثقافتهم وعلومهم ووصلت أفكارهم ومعتقداتهم حيثما حلوا كما أدخل المصريون نظام الزراعة في تلك الأماكن ونقلوا معهم آلاتهم الموسيقية وفنهم الرفيع وبذلك تعلم الناس الفنون المصرية من موسيقى ونحت ونقش وبلغ من تأثير المصريين فيمن يتصلون بهم أن هؤلاء آمنوا بمعتقدات المصريين ودياناتهم وتنظيماتهم الاجتماعية في جنوب بلاد النوبة والتي أصبحت عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد

إحدى ممتلكاتهم. وقد اكتشف العالم الأثري (رنيرز) في بلدة كرمة بالقرب من دنقلة قلعة يرجع تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة عليها نقوش تفيد بأن تلك القلعة كانت لحامية تدعى (كوش).

وما أن انتهى القرن العشرون قبل الميلاد حتى كان نفوذ المصريين قد عم واستتب لهم الأمر فاتخذوا من طيبة (الأقصر) عاصمة لهم.

واستخرج المصريون الذهب من المناجم الواقعة بين الشلالين الأول والثالث وبلغ مقدار ما كانوا يستخرجونه من الذهب ما يساوي٤٠ ألف كيلو جرام سنويًا وهو رقم قياسي لم تصل إليه أي دولة منتجة للذهب حتى القرن التاسع عشر الميلادى.

وأخذت الأمور تنقلب ودارت الدائرة وانقض قواد كوش على مصر وكونوا لأنفسهم حكمًا عرفت دولتهم بالأسرة الخامسة والعشرين واتخذوا (نبتة) عاصمة لهم ثم هاجم الأشوريون مصر وانسحب فرعون مصر إلى كوش ثم أصبحت مصر فريسة بعد ذلك للفرس ثم اليونان ثم الرومان.

أدخل الأشوريون ثورة فنية في أشغال الحديد. ولم يكن لدى مصر في ذلك الوقت لا الحديد ولا الوقود اللازمان للصناعة في حين يوجد شمال كوش (منطقة أسوان) الحديد ولا يوجد الوقود. أما في جنوب كوش فيوجد الحديد والوقود بكثرة مذهلة لدرجة أن البقايا التي تخلفت من إنتاج الحديد والتي عثر عليها حول آثار وخرائب دولة مروى كان يمثلها المنقبون بأنها برمنجهام وسط أفريقيا.

استمرت دولة (مروى) لما بعد المسيح، إذ استطاعوا بفضل حراهم

وفؤوسهم المصنوعة من الحديد أن تستمر تجارتهم وأن يصدوا أي غزو واتصلت دولتهم بدولة البطالمة في مصر وتاجروا في العاج والرقيق والجلود النادرة وريش النعام والأبنوس وربما في الذهب المستخرج من داخل أفريقيا وقد يكون من الحبشة.

شهد هذا العصر نهضة في فن النحت والعمارة الضخمة وعودة الكتابة باللغة الهيروغليفية، وكانت الآلهة التي يعبدونها هي آلهة المصريين وكان الملوك يسمون أنفسهم بملوك مصر العليا وملوك مصر السفلى. ثم أخذت تزول دولة مروى وتقل مواردها؛ لقيام منافسة تجارية في منطقة أكسوم شمال الحبشة عند بدء المسيحية، فأصبحت دولة أكسوم أكبر سوق للعاج. كما جاء في دليل بحارة إسكندر المقودني ونتيجة لقيام دولة سبأ في جنوب الجزيرة العربية.

استمرت دولة أكسوم في التقدم خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين وكان ملوكها يتاجرون مع اليونانيين الذين استوطنوا الإسكندرية ويتحدثون لغتهم ويأكلون في صحاف من ذهب وفضة وكانوا يتسلحون بأسلحة حديدية مستوردة كما كانوا يتوغلون في صيدهم في النيل حتى مدينة الخرطوم.

وقد اعتنق ملوكها المسيحية في منتصف القرن الرابع الميلادي ثم أغارت جيوشهم بعد ذلك بقليل على مروى وأحرقت قراهم وانتهت بذلك دولة مروى. ويعتقد العالم الأثري والمؤرخ دكتور (أركل) أن ملوك أسرة مروى نزحت غربًا إلى كردفان ودارفور حيث يعيشون في المنطقة التي تقع بين النيل وبحيرة تشاد.